M.4
Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

Dia iein
toranieh
M. Demirci

الدكتور عبد الفتاح لاشين
كلية البنات الإسلامية ـ جامعة الأزهر

بلاغة القرآن في آثار الرضي عبد الحبار

وأثره في الدراسات البلاغية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة دار القرآن
ميدان الأزهر الشريف
ت ٩٠٢٣٨٢ - ٩٠١١٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، الرحمن الرَّحيم ، مالك يوم الدِّين ؛ إياكَ نعبد وإياكَ نستعين ، اهدنا الصراط المستَقيم ، صرَاط الَّذين أنعمتَ عليهم غير المغضُوب عليهم ولا الضالِّين .

أما بعد :

فقد كان موضوع بحثى :

بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار

وأثره فى الدراسات البلاغية

وقد نوقش فى كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر — فى صبيحة يوم الخميس ١٧ من رجب ١٣٩٣ هـ ، الموافق ١٦ أغسطس ١٩٧٣ م ، ونال درجة العالمية « الدكتوراه » بمرتبة الشرف الأولى ، وكانت لجنة المناقشة مكونة من الأستاذ الدكتور أحمد إبراهيم موسى « مشرفا » ، وعضوية الأستاذ الدكتور كامل الخولى والأستاذ الدكتور أحمد الحوفى .

وقد أتيحت الفرصة لأقدمه بين يدى القراء كما قدمته إلى لجنة المناقشة قبل ثلاثة أعوام ، ولم أشأ أن أتناوله بالتعديل إيمانا منى بأنه يمثل فترة من حياتى الفكرية والعقلية .

وأملى أن يجد القارئ فيه بغيته وأن يقع منه موقعا حسنا ، فإن كان ذلك فهو المنية والأمل ، وإن كان دون ذلك فما أردت إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

عبد الفتاح لاشين
دكتوراه فى البلاغة بمرتبة الشرف الأولى
ومدرس بكلية البنات الاسلامية جامعة الأزهر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيد البلغاء، وأشرف الفصحاء ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان .

أما بعـــد :

فقد أخذت البلاغة العربية تحظى باهتمام كبير فى الدراسات الجامعية . وكان للجامعات العربية وجامعة الأزهر فى مقدمتها أثر فى إزدهار الحياة العلمية والأدبية والبلاغية ، وقد أخرجت رجالا كان لهم فضل التوجيه ، وشرف الإرشاد ، ونور إنارة السبيل ، وكان إيمان هؤلاء الرجال عظيما فى بعث حركة فكرية فيها أصالة التفكير الإسلامى ، وإحياء التراث العربى والميراث الثقافى ، فعكف المتخصصون يحيون ماندرس من قديم مشرق ومن تراث وضاء ، واستطاع هؤلاء أن يخرجوا كتبا ترسم الطريق للدراسات البلاغية والنقدية ، فكانت دراسات وبحوث عن الجاحظ ، وابن المعتز ، وقدامة ، وأبى هلال ، وابن سنان ، وابن رشيق ، والزملكانى ، وابن أبى الإصبع ، وغيرهم من أعلام المدرسة الأدبية والنقدية ، وبقيت بلاغة الفلاسفة وأهل الكلام تنتظر من يقوم بعبء دراسته وفحصه وعرضه ، ولم تظهر فيه — حتى الآن — إلا دراسات قليلة عن عبد القاهر ، والزمخشرى ، والسكاكى .

ومع أن المتكلمين من أوائل من تحدثوا عن البلاغة العربية فوضعوا التعريفات الخاصة بها وضربوا الأمثلة الجيدة للأسلوب البليغ ، وأكثروا من الموازنة بين التعبير الجيد والتعبير الردىء نثرا وشعرا ، وكان القرآن يمدهم بأبلغ الأمثلة وأرفعها ، لأنه الكتاب المعجز المبين ، وهم ما اندفعوا إلى الحديث عن البلاغة إلا ليظهروا فى الناس خصائص إعجازه ، وليكشفوا

من نوره ما تعامت عنه بعض العيون المريضة ، وقد تركوا الحقل الأدبي والبلاغي ثَـرَاءً خصبا ، وهم بعد قوم مقاول أهل فصاحة ولسن ، وجدل وحجاج ، يمتازون بضبط الفكرة وتسلسلها وتقليبها على شتى الوجوه ، وكان المعتزلة منهم أحرص الناس على اتباع المنطق واتخاذ البرهان في تفنيد الحجج وإزالة الشبهات ، وقد أوتوا حرية في تفسير القول وتوجيهه حتى وصفهم رجال الاشتشراق بأنهم أحرار الاسلام ، فأخصبوا الفكر ، ووجهوا التعبير وفجروا في البيان ينابيع دافقة أخذت عيونها تجيش وتفيض ، حتى أصبحت روافد صافية يردها الدارسون ناهلين .

ولما شاءت إرادة الله تعالى أن ننقب ونبحث في الدراسات البلاغية والنقدية ، أمعنا النظر ، وأجلنا الطرف ، فوجدنا كثيرا من الدراسات في بلاغة العرب الأدباء ، ولم نجد إلا بحوثا قليلة في بلاغة أهل الكلام والفلسفة . فأيقنت ألا نهوض للبلاغة والنقد مالم تدرس الجوانب كلها ، وتمحص كل الاتجاهات المختلفة ، وأن المجدد ، والباحث في البلاغة العربية لن يقدر أن يثبت أقدامه في خضم الحياة البلاغية مالم يتقن القديم بحثا ، ويقتله درسا وفحصا ، وينفذ إلى أعماقه وأغواره .

ولما كانت المكتبة العربية والدراسات القرآنية والبلاغية ، تفتقد البحث عن جهود أهل الكلام والمعتزلة منهم في البلاغة والإعجاز ، وكانت حاجتها إلى ذلك جِدّ عظيمة ، لاسيما وأن البحوث التي تناولت الشخصيات الكلامية وجهودها في البلاغة والإعجاز تناولتها وهي في عصورها المتأخرة ، في القرن الخامس وما بعده والبلاغة حين ذلك كالثمرة التي حان قطافها ، والجنى الذي اكتمل نضجه ، فالذين تناولوا مثلا عبد القاهر ، والزمخشري ، والسكاكي تناولوه والبلاغة قد تم نموها أو كادت ، فاتضحت التقسيمات ، وظهرت التعريفات ، وتعددت التصنيفات والفروع .

ولم يتناول أحد من الباحثين قدماء الشيوخ من المعتزلة الذين لهم قدم راسخة في البلاغة والإعجاز قبل قيامها على قدم وساق . وأقفرت المكتبة العربية من أمثال هذه الدراسة التي تبين جهدهم في البلاغة وهي في مرحلة حبوها ، وطور صباها .

ومن هنا رأينا — على الرغم من وعورة الطريق وصعوبة المسلك — أن نبدأ بإمام المدرسة الكلامية وشيخ المعتزلة في عصره ، وصاحب أول أثر قديم تناول آثارهم وجمع مقولاتهم ، ألا وهو : « قاضي القضاة عبد الجبار » الذي عاش في بيئة خراسان الأعجمية ، وبلاد الحركات الاعتزالية ، والدائرة الواسعة لأهل الكلام .

هذه الشخصية المغمورة التي غمرها طوفان النسيان ، وطمرتها عاديات الزمن ، فلم تظفر بما يليق بها من بحث وتعليق ، تلك الشخصية التي ساعد على نسيانها علماء تسلقوا على أكتافه ، وبلغوا ما أرادوا من الشهرة بالنقل عنه ، ومع ذلك لم ينوهوا بشأنه ، أو يذكروه بفضل وإحسان ، بل تناسوه حتى وكأنه لم يكن شيئاً مذكورا .

ولولا ما أتيح لأهل المعرفة ومحبي الثقافة في العصر الحديث ، وفي الخمسينات من هذا القرن من العثور على بعض مخطوطاته في بلاد اليمن ، وانكباب العلماء على تحقيقها لبقي القاضي عبد الجبار نسيا منسيا .

وقد ظهر من كتب القاضي عبد الجبار لأول مرة بعد غياب دام أكثر من ألف عام وهي مدفونة في بلاد اليمن حتى أذن الله لها أن تبعث فكان منها :

« متشابه القرآن » وطبع محققا سنة ١٩٦٦ م ، و« المغني » الجزء السادس عشر الخاص بإعجاز القرآن وطبع محققا سنة ١٩٦٠ م وظهر قبلهما « تنزيه القرآن عن المطاعن » سنة ١٩٢٩ م .

وكان لظهور تلك الآثار هزة وطرب فى الوسط العلمى — لأن موضوعها هو الآيات القرآنية التى هى مثار الجدل بين المعتزلة وخصومهم — فأقبل عليها الباحثون والفاحصون ، وشدت اهتمامى ، فعكفت عليها ، فوجدت فيها بحوثا فى البلاغة والإعجاز ، تستوجب من يتوفر على دراستها ويتفرغ لفحصها .

فقد وجد القاضى عبد الجبار أنه قد وجهت للقرآن مطاعن قذف بها الزنادقة وأرباب المرض من منتحلى الثقافة والعلم ، فلبسوا على العامة بما يزعمونه من التناقض ووقوع اللحن، وعدم التوافق بين الشرط والجزاء ، والذهاب بالمجاز والكناية إلى معان حقيقية لا يشهد لها السياق . ثم الوقوف عند المتشابه والإصرار على إبقائه على حقيقته ، وما جاء مكررا من المعانى مما يحسبون أن القرآن فى ذلك كله قد خرج على الأسلوب العربى فيه . وهى أراجيف نجد صداها لدى البعيدين عن أسرار البيان ودقائق البلاغة التى يعرفها الأصلاء من العرب عن طبع خالص ، فجرت ألسنتهم شعرا ونثرا بمثل ما جرى به القرآن فى منحاه التعبيرى ، وإن ارتفع القرآن بمستواه البيانى إلى أفق لا تشرئب إليه الأعناق

فكان من همّ القاضى عبد الجبار أن يثبت أن الأسلوب القرآنى يطرد مع النسق البيانى لدى العرب ، إيجازا ، وحذفا ، وتشبيها ، ومجازا ، وكناية ، وتقديما وتأخيرا ، وأن ما يرجف به المرجفون لغو لا يقره من درس مذاهب العرب فى القول ، ومناحيها فى البيان .

وخرجت من ذلك كله وأنا بسبيل اختيار موضوع الرسالة :

بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار

وأثره فى الدراسات البلاغية

ويمكن تلخيص الأسباب التى دفعتنا إلى اختيار هذا الموضوع فيما يأتى:

أولا : حاجة المكتبة العربية إلى الحديث عن جهود أئمة الكلام

وبخاصة المعتزلة فى الدراسات البلاغية والقرآنية ومذاهبهم فى الإعجاز — فى نشأتها الأولى ومراحل طفولتها — لا سيما وأن البحوث التى تمت حتى الآن كانت مقصورة على العلماء الذين تأخروا فى الزمن كعبد القاهر ، والزمخشرى ، والسكاكى ، الذين قطفوا ثمرة غيرهم وجهود من سبقهم ، ولم تتناول الخطوات البدائية التى تعثرت حينا ووقفت حينا آخر .

فالبحث بهذا يعد أول دراسة لعلم من أعلام البلاغة والإعجاز المغمورين ، كما أنه يعد لأول مرة عرضا أمينا لتفسير المعتزلة وتوجيهاتهم من أصولهم أنفسهم بعد الظلامة التى ركبتهم قرونا متطاولة كانت آراؤهم تؤخذ من كتب خصومهم .

ثانيا : إذا بتلك الدراسة نضع يدنا على الصلة بين بلاغة القاضى عبد الجبار وبين المدرسة التى تأثرت به بالغ التأثير وأخذت منه ونقلت عنه وعلى الرغم من ذلك تناسته وساعدت على إغفاله وإهماله، ومن هؤلاء : الشريف المرتضى ، وعبد القاهر ، والزمخشرى ، وهذا يوجب على أهل العلم إعادة النظر فى تقويم تلك الشخصيات من جديد .

هذا مع رغبة أساتذتنا دفعتنا إلى اختيار الموضوع والمضى فيه علنا نستطيع أن نرفع عن هذه الشخصية ما أصابها من ضيم ، وما نزل بها من حيف ، وننفض عنها غبار عشرة قرون مضت ، فعشت معها رحلة طويلة ممتعة — وإن تكن شاقة — وسرنا فى الطريق الطويل نتعثر حينا ، ويلوح لنا بصيص الأمل أحيانا ، حتى قدر لنا أن نخرج أخيرا بهذا البحث الذى نرجو أن ينال رضا الدارسين والباحثين .

أما العقبات التى صادفتنا فى البحث فلا يحمل التحدث عنها لأنه ما من باحث مر بهذا الطور من الدراسة إلا ولقى الكثير من عنت البحث ، ومشقة الحصول على المراجع العلمية — وبخاصة إذا كانت مخطوطة